مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد6 ، العدد13، (مارس2018) EISSN : 2600-6405

هجرة التلمسانيين الى المغرب الأقصى خلال القرن 10هـ/16م- العلماء أنموذجا-

مسعود بقادي الدكتور: محمد الزين

جامعة سيدي بلعباس

ملخص المقال:

يندرج هذا المقال في إطار التعريف بظاهرة كانت ولا تزال مجالا خصبا للدراسة في تاريخ البلدين الجزائر والمغرب الأقصى وذلك نظرا لنتائجها على المجتمعين معا في الماضي والحاضر وهي تشكل بذلك لبنة تلاحم بين البلدين ومن البديهي أن حركة التنقل خاصة تنقل العلماء هي حجر الزاوية في العلاقات بين البلدان العربية والإسلامية. ولا مجال للشك في أن الجزائر والمغرب الأقصى تربطهما أواصر متينة منذ القدم، ومسألة الحدود ما هي إلا حاجز رسمه الاستعمار للتفرقة بين الشعبين الشقيقين لذلك ارتأيت أن أبين من خلال هذا المقال ذلك الدور الذي لعبته حركة التنقل والهجرة بين تلمسان والمغرب الأقصى (خاصة نحو مدينة فاس) ودور العلماء في هذه الهجرة في فترة زمنية متميزة وحبلى بالأحداث السياسية والعسكرية ليس فقط في البلدين وإنما في حوض البحر الأبيض المتوسط ككل.

الكلمات المفتاحية: (هجرة، علماء، فقهاء، حراك، تلمسان، فاس، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، العثمانيون ، السعديون)

Article summary:

This article falls under the definition of the phenomenon was and remains a fertile ground for study in the history of the two countries, Algeria and Morocco brigades, in view of the results of the gathered together in the past and present, they constitute the building blocks of the cohesion between the two countries, it is obvious that movement, especially the movement of scientists is the cornerstone of the relations between the Arab countries and Islamic, there can be no doubt that Algeria and Morocco brigades have strong ties since the issue of the border is a barrier drawn by colonialism to differentiate between the two fraternal peoples ...so i

thought to point out in this article, the role played by the movement and migration between TLEMCEN and Morocco (especially to the city of Fez) and the role of scientists in this migration in a distinct period of time Leifeng Pagoda Other places political and military events not Only in the two countries, but also in the Mediterranean basin as a whole

مقدمة:

إذا كان الاستقرار يبعث في نفسية الإنسان التمتع بملذات الحياة ومن ثمة الركون إلى الخمول(في بعض الأحيان).فإن التنقل من مكان إلى آخر (رغم الصعاب التي تعترض الإنسان من خلاله) له متعته في اكتشاف أرض الله الواسعة وما تحتويه من مظاهر طبيعية و بشرية و عمرانية ... و هذا التنقل قد يكون طواعية عن طريق الرحلة وقد يكون قسريا. عن طريق الهجرة الإجبارية، إذ عرف الإنسان الهجرة منذ القدم، وقد كان النبي ﷺ قد حث أصحابه على الهجرة إلى الحبشة (الهجرة الأولى) التي تعتبر أول هجرة في الإسلام، وقد شهدت دول المغرب الإسلامي عدة هجرات أبرزها الهجرة الهلالية، حوالي منتصف القرن الحادي عشر ميلادي، وقد أضحت الهجرة بذلك ظاهرة ألفتها الشعوب لما لها من أهمية في تغيير الواقع المعاش للفرد والجماعات .

ولعل ما يهمّنا في هذا المقام هو تلك الهجرة التي شهدها المغرب الأوسط في العصر الحديث لنخبة من العلماء مع منتصف القرن 10هـ/16م.فما هي أسبابها ؟ ولماذا شملت هذه الهجرة نخبة من العلماء؟ وإلى أين كانت وجهتهم وما هي آثار هذه الهجرة على المغرب الأوسط من جهة وعلى الأماكن المهاجر إليها من جهة ثانية. هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال

إن حركة الهجرة والتنقل بين البلدين المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى كانت ظاهرة قائمة قبل القرن 10هـ/ 1م[1] والملفت للانتباه أن هذا التنقل شمل فئة العلماء والمثقفين خاصة – خلال القرن المذكور - إذ لم تكن ثمة عراقيل أو مشاكل حدودية تمنع تنقل هؤلاء الأشخاص من وإلى البلدين ذلك أن تنقل المثقفين

[1]- عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/16م.الجزء الثاني، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص 111

والدارسين بين المغرب والجزائر كتنقل سكان الجزائر بين مدينتي وهران وتلمسان وسكان المغرب بين مدينتي فاس ومكناس[1]

ومن خلال ما سبق ذكره حق لنا أن نتساءل عن تلك الهجرة – موضوع البحث – التي شملت مجموعة من العلماء مع منتصف القرن 10هـ/16م من المغرب الأوسط، إلى المغرب الأقصى، هل كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؟ أم أن هذه الهجرة كانت بسبب التواجد العثماني بالمغرب الأوسط؟ وما نظرة هؤلاء العلماء إلى الأتراك من جهة، وإلى الأسرة الحاكمة في المغرب الأقصى من جهة ثانية ؟

من خلال تتبعنا و قراءتنا لبعض المصادر والمراجع اتضح لنا أن هجرة العلماء من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى لم تكن وليدة القرن 10هـ/16م ولم تكن وليدة سبب بعينه بل لها عوامل متعددة .

العامل الأول: وجود فائض من العلماء (خاصة في تلمسان)التي تكونت بها طبقة كبيرة من العلماء من أُسر عدّة كأسرة: ابن مرزوق، والمقري، والعقباني، والسنوسي، وابن زاغوا، وابن زكري، فتخرج بذلك عدد ضخم من العلماء لم ينزح إلى ريف البلاد، وهم أبناء حواضر، فآثاروا الهجرة إلى حواضر مغربية أخرى كفاس [2]

العامل الثاني: اضطراب الوضع السياسي وكثرة الفتن بسبب النزاع حول الحكم (الأسرة الزيانية) وتدخل القبائل لمناصرة هذا الفريق أو ذاك[3]، ونفس الشيء يقال عن المغرب الأقصى خاصة في عهد الدولة السعدية إذ هاجر ثلاثة من الأمراء السعديين وهم (عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن) والعديد من أتباعهم من المغرب إلى الجزائر بعد أن آل الحكم فيه إلى أخيهم عبد الله[4]

---

[1]- أرزقي شويتام، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية(الفترة العثمانية) مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر، العدد:13، 143هـ/2011م ، ص 85

[2] -العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سرتا ، عدد، 03 ، 1400 هـ / 1980م ,ص59

[3] - قاصري محمد السعيد، المهاجرون الجزائريون ودورهم السياسي والثقافي والاجتماعي في المغرب الأقصى(1830 – 1930) رسالة دكتوراه بإشراف د. عميراوي أحميدة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008 / 2009، ص14

[4]- عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/ 16م، الجزء الثاني، مرجع سابق ص 112

العامل الثالث : ولعل هذا العامل هو أكبر وأهم وأبرز ما يهمنا، باعتباره يخدم – موضوع البحث – والذي أشارت إليه كثير من المصادر والمراجع والمتمثل في تعسف العثمانيين وطغيانهم في أوائل حكمهم، خاصة سياسة العنف التي استعملها عروج في تلمسان ... إذ أنه لما استقر أمر تلمسان ونواحيها للأتراك العثمانيين في أواسط القرن 10هـ/16م، هاجرت قبائل عرب الشراقة، الذين كانوا يستوطنون منطقة تلمسان و وجدة إلى المغرب فرارا من سلطة الأتراك عليهم، وهروبا من دفع الضرائب الباهظة إليهم، وآثروا الدخول في خدمة الأشراف السعديين[1].

كل هذه العوامل وغيرها جعلت العلماء لا يشعرون بالراحة ولا بالجو الملائم والاجتهاد في الرأي والحياد السياسي[2] ومن ثمة رفض بعض رجال الدين التواجد العثماني باعتبارهم عجم، إذ أن الوجق العثماني يظم أجناسا مختلفة اللسان والعرق والجغرافيا (يونانيين وألبان، وأرمن وبولونيين من أناضوليا ومن البلقان)[3] وقد صدرت بذلك فتاوى ترفضهم وتصفهم بالغرباء من أمثلة ذلك صدور فتوى من مرابط جنوب الجزائر، هو سلطان بني جلاب في تقرت و قاضيها، والذي نظّم حملة مضادة للعثمانيين وأفتى بوجوب محاربتهم محتواها (من يقتل أحد الأتراك سوف ينال رضى من الله وهو في مرتبة من قتل ملحد أو كافر)[4] وكان سيد تلمسان سيدي محمد بن يوسف السنوسي يؤكد أنه لا يوجد شيء أصعب من العيش مع مسيحي وتحت السلطة العثمانية فلا يتوقف عن ترديد عبارة الترك و النصارى الكل في زمرة واحدة[5] وقد عبّر الأديب العالم أبو عثمان المنداسي بن عبد الله التلمساني عن ظلم وجور الأتراك بقصيدة سماها العقيقة بقوله :

---

[16] - محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراتها لسيد هوداس، تمّ طبعه على يد بردين صاحب المطبعة بمدينة أنجي ، 1888 ص 174

[17] - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول ، عالم المعرفة، طبعة خاصة، 2011ص 424

[3]-Grammont (Henri-delmas)Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830), présentation de lemnouar merouche,Editions bouchene , 2002 p,202

[4]- لبصير سعاد، دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني، 1516 – 1830، أعمال الملتقى العلمي الأول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي و الحاضر، مايو ، 2008 ص 59 ، نقلا عن :

(Ch) feraud , les ben-jallab, p 140

[20] - سعاد لبصير، المقال السابق ، ص 59 ، نقلا عن Kamel,filali, l algerie,mystique,p,64

أمــن قادر بالله يحمي تلمسان فإن بها مـن قـوم ياجـوج إخوانا
بنى السد ذو القرنين للناس رحمـة فياليته مـن شـوكـــة الترك هنانا
سمعنا حـديثا صادق النقل ربــه بأن لجنس الترك في الأرض إخوانا
و لكـن وراء السد عـمّ فساد هم وهم أفسدوا في الغرب كفرا تلمسانا[1]

وإذا كان العاملان الثاني والثالث المشار إليهما سابقا – أساسيان – في هجرة الأفراد و الجماعات – خلال الفترة موضوع البحث- فان هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عنهما والمتمثلة في :

الهجرة لاستكمال الدراسة وطلب العلم، أو للعمل، أو لزيارة الأضرحة وكبار شيوخ الصوفية والمرابطين[2] ويضيف الأستاذ سعد الله عوامل أخرى متمثلة في كثرة مراكز التعليم، ووفرة المكتبات ووجود جامع القرويين وتقدير ولاّة المغرب لأهل العلم إضافة إلى وجود جذور تاريخية من أسر وأنساب وتجارة بالمغرب، كما أن الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر آنذاك، رغم تقلب الأحوال السياسية [3]

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن معظم الفئات المهاجرة كانت الطبقة المثقفة الواعية التي كانت تريد تغيير واقعها المعاش وذلك بالانتقال إلى المغرب – خاصة فاس- للعوامل والأسباب السابق ذكرها

هجرة علماء تلمسان إلى فاس في القرن 10هـ/ 16م

شملت الهجرة التي سنتحدث عنها في الفترة – موضوع البحث- علماء أجلاء أغلبهم من الغرب الجزائري – خاصة تلمسان – فما هي دوافع وأسباب هذه الهجرة؟ وهل كانت مقتصرة على فترة القرن 10هـ / 16م ؟ ولماذا كان السواد الأعظم من هؤلاء المهاجرين العلماء من تلمسان ؟

شهدت العلاقات بين المغربين الأوسط والأقصى اضطرابات، واصطدامات متعدد، كنا قد أشرنا إليها في بداية هذا البحث وذلك منذ نهاية دولة الموحدين

[1] -سعاد لبصير، المقال السابق، ص60، نقلا عن:أحمد بن سحنون الراشدي الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ص 5، ,55

[2] - عمار بن خروف العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، الجزء الثاني، صص 113، 114، 115، 116، وهذه العوامل التي تطرق إليها الأستاذ بن خروف في هذه الصفحات تدخل ضمن الهجرة الطوعية

[3]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، مرجع سابق، ص 428

(منتصف القرن الثالث عشر ميلادي) واشتدّ التنافس خاصة على تلمسان في عهد الدولة السعدية لاسيما مع منتصف القرن 10هـ/16م ومردّ ذلك إلى نظرة الحكام السعديين إلى الأتراك على اعتبار أنهم عجم ذلك أن (الأتراك هم من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وصورا للإسلام، وإن كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدقوا عليهم قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[1] ويعلق التمجروتي، صاحب النفحة المسكية على مسألة الخلافة العثمانية – بقوله (وإن كانوا إنما حملوا الإمارة وقلّدوا (بضم القاف وكسر اللام) الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا، وسادتنا الشرفاء ملوك المغرب .. وقد أجمع المسلمون على أن الخلافة لا تنعقد إلا لمن هو من صحيح قريش)[2] .

ويتحدث التمجروتي عن أفعال وخصال الأتراك السلبية ، عندما مرّ بليبيا سنة 997هـ/1589م (بأنهم قد جاروا على أهلها، وأفسدوافيها، وضيّقوا عليهم في أرضهم وديارهم وأموالهم، واستباحوا حريم المسلمين حتى أن بنت الإنسان من الأعيان والأكابرإذا كان لهم فيها غرض لا يقدر أحد أن يمنعها منهم – أعني النكاح – ولا أن ينكحها لغيرهم، إلى غير ذلك من الذل والإهانة التي هم فيها معهم[3]

ويرى ابن القاضي بأن السعديين أحق بالخلافة من الأتراك بسبب شرفهم[4] وبالمقابل فإن الأتراك العثمانيين في تركيا أو الجزائر كانوا ينظرون إلى المغرب الأقصى

[1] - فهد بن محمد السويكت، مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، المملكة العربية السعودية، م (19)الآداب (1)، 1427هـ / 2006م، ص183

[2] - التمجروتي علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشاذلي، الرباط، 2002، ص 135 ومما تجدر الإشارة إليه هو أنه عندما تسلم السلطان سليم الأول مفاتيح الكعبة من ابن شريف مكة سنة 1517م، قد كرّس دوره كخليفة وأميرا للمؤمنين (سلطة دينية وسياسية) على شرق المتوسط وكان يريد توسيع هذه السلطة على غرب المتوسط، أنظر:فهد بن محمد السويكت، مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مقال سابق، ص 180

[3] - فهد بن محمد السويكت ، المقال السابق، ص 184

[4]- ابن القاضي أحمد,المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ج1، دراسة وتحقيق:محمد رزوق، مكتبة المعارف ص، 26، الرباط 1986.باستيلائه على مراكش عام 1544م، اتخذ محمد الشيخ لقب الخلافة، ومن الغريب أن عددا من كبار الفقهاء منهم عبد الواحد الونشريسي رفضوا بيعة السعديين، واعتمد السعديون في مسألة البيعة، على نسبهم وتراثهم الشريف .أي التمسك بالقرشية والانتماء للسلالة النبوية

على أنه امتداد للعالم الإسلامي، الذي تمكنت الدولة العثمانية من توحيده وجعله تابعا لإسطنبول، أي إلى الخلافة الإسلامية ولن يتأتى لها ذلك إلا بجعل المغرب الأقصى تابعا لهذه الخلافة التي تشرف عليها الدولة العثمانية.بل كان طموح سلاطين الدولة العثمانية أبعد من ذلك إذ أنه عندما ألقى السلطان العثماني سليم الأول نظرة على خارطة الأرض استصغرها وقال(وهل تتسع هذه الدنيا لأكثر من ملك واحد)[1]

ومما يشجع هذا الطرح هو أن الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي رفعت لواء الجهاد وهوما تذهب إليه الأستاذة نفيسة الذهبي بقولها:(أن العثمانيين دخلوا البحر المتوسط في البداية من خلفية دينية بدافع الجهاد لأنه واجب يلزمهم باعتبارهم حماة للإسلام.وبما أن منطقة الشمال الإفريقي مهددة من قبل النصارى فضمها للدولة أولى من تركها، وبذلك يكون حضورهم رد فعل تلقائي، ونوع من النجدة والإغاثة لأهل هذه المنطقة وليس نوعا من الاحتلال كما ادعى البعض)[2] .

وعليه ومن خلال جدلية الخلافة بين العثمانيين والأسرة السعدية ظهر في المغرب الأوسط خاصة في تلمسان من يؤيد الأسرة السعدية ومن ثمة طلبوا ضم تلمسان إلى المغرب الأقصى بل وجّهوا نداءات استغاثة إلى الأمراء السعديين[3]

وبالتالي أفضليتهم على منافسيهم الوطاسيين في الغرب والعثمانيين في الشرق وبأن البيعة في قريش سادة العرب وهم منهم انظر:

Willis,j , r, the bayca in islam, and some a spects of the bayca in morroco s relations with the western sudan

منشور باللغة الإنجليزية ضمن أعمال مؤتمر المغرب وإفريقيا، وجنوب الصحراء في بداية العصر الحديث، معهد الدراسات الإفريقية الرباط ، 1992، ص، 221، راجع فهد بن محمد السويكت، مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مقال سابق، ص182

[1] - نفيسة الذهبي، الدولة العثمانية في مجالها المتوسطي خلال القرن 16م بين إستراتيجية الجهاد وصراع الهيمنة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم، 10، بعنوان، العثمانيون والعالم المتوسطي، مقاربات جديدة، تنسيق، عبد الرحمان المؤدن، عبد الرحيم بنحادة ط1، 2003 ص81

[2] - نفيسة الذهبي، المقال السابق، ص 89

[3] - كانت هناك ثلاث حملات من الأسرة السعدية على تلمسان **فالحملة الأولى** سنة(957هـ - 958هـ / 1550م - 1551م) وذلك بعد دعوة أعيان وعلماء تلمسان السلطان محمد الشيخ إلى مدينتهم و كان محمد الشيخ قد وعد أعيان و قبائل تلمسان ب القدوم إليهم وإعفائهم من الضرائب لمدة سنتين.**والحملة الثانية** كانت سنة (964هـ / 1557م) التي تمكن فيها محمد الشيخ من دخول تلمسان بسهولة بسبب اضطرابات

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

نماذج عن هجرة علماء تلمسان إلى المغرب الأقصى

بعد أن تعرضنا إلى أبرز و أهم العوامل التي دفعت بالعديد من الأفراد والجماعات إلى الهجرة نحو المغرب الأقصى سنحاول إماطة اللثام عن مجموعة من الشخصيات العلمية التي هاجرت إلى المغرب الأقصى إذ أنه ومع بداية العهد العثماني، وطيلة القرن 10هـ/16م، جلبت فاس إليها معظم الفقهاء الباقين في تلمسان ونواحيها ومن العائلات التلمسانية الشهيرة التي اهتمت بالفقه، عائلة الونشريسي، والمغيلي، والمقري، والعقباني ومعظم أفراد هذه العائلات كانوا يترددون

حدثت في الجزائر بوفاة صالح رايس، وكادت هذه الحملة أن تتمكن من ضم تلمسان إلى المغرب لأن السلطان السعدي كان في اتصالات حثيثة مع الأسبان الذين وعدوه بتقديم مساعدات مادية وبشرية لكنهم خذلوه، فاضطر إلى الانسحاب من تلمسان في نفس السنة، بعد أن جهّز حسن بن خير الدين حملة لتحرير تلمسان في نفس السنة .

أما **الحملة الثالثة** كانت سنة (968هـ / 1560م)كانت هذه الحملة لأسباب أولها انتقام السلطان عبد الله الغالب بالله لمقتل أبيه، محمد الشيخ من طرف الأتراك يوم 29 ذي الحجة سنة 964هـ، 23 أكتوبر1557م من طرف القائد صالح كاهية رفقة 12 تركي وثانيها فشل حملة حسن بن خير الدين على المغرب وانهزامه في معركة وادي اللبن بأحواز فاس سنة 965هـ / 1552م مما زاد في قوة وشعبية السلطان السعدي عبد الله الغالب وثالثها ثورة أهالي تلمسان ضد الحامية التركية بإيعاز من السلطان عبد الله الغالب نفسه ورابعها انشغال حسن باشا بالمشاكل الداخلية خاصة في قمعه لتمرد بني عباس ببلاد القبائل وخامسهااستغاثة سكان تلمسان خاصة العلماء بالسلطان السعدي عبد الله الغالب بالله، ورغم انسحاب القوات المغربية سريعا من تلمسان بعد عودة حسن بن خير الدين من بلاد القبائل ومواجهة الموقف الجديد في الغرب الجزائري إلا أن الجنود المغاربة بأمر من السلطان السعدي نقلوا الكثير من التلمسانيين إلى فاس بينهم طائفة هامة من علمائها وفقهائها، وسوف نتطرق لأبرز هؤلاء العلماء في الصفحات اللاحقة.لمزيد من التفاصيل عن الحملات الثلاث السابق ذكرها يراجع:

- ديكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب
- الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس، مطبعة أنجى 1888

- عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10م/16م الجزء الأول، وبالفرنسية انظر:

- August cour, l etablissements des dynadties des cherifs au maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger (1509-1830) leroux editions, paris, 1904.

بين حاضرتي تلمسان وفاس[1].وقد ظلت مشكلة الحدود هي هاجس الحكام المغاربة، غير أن ذلك لم يكن يخطر ببال شعوبهم، خاصة العلماء والمثقفين منهم بصفة خاصة إذ أنهم لم يتقيدوا بفكرة الحدود عبر المراحل التاريخية المختلفة ... وحتى في تلك الفترات التي وصلت فيها العلاقات السياسية إلى ذروة التوتر فكانوا يعتبرون الأقطار المغاربية وحدة متكاملة ... إذ كان العلماء يشكلون مدرسة واحدة يتبادلون فيها المعارف[2]، كماأن أغلب حكام المغرب(وطاسين أو سعديين)كانوا يتميزون باحترامهم للعلماء ومجالستهم ويصطحبونهم معهم، ويستشيرونهم ذلك أنهم كانوا هم آخذين من العلم بنصيب وافـــر[3]

لقدجاء ابن عسكر بذكر عدد من أسماء العلماء الذين كانوا ينتمون إلى المغرب الأوسط منهم التلمسانيون، ومنهم الميليانيون، والوهرانيون، والقسنطينيون، لكن أغلب علماء بلاد الجزائر الذين ذكرهم ابن عسكر ينتمون إلى تلمسان بحكم الارتباطات الفكرية التي كانت تجمعهم بمدينة فاس[4] .

ويجب أن نشير قبل التطرق إلى ترجمة هؤلاء العلماء بأن أسماءهم مرتبة حسب تاريخ وفاة كل واحد منهم من جهة، وكذا إدراج كل من ولد أو توفي خلال الفترة – موضوع البحث – أي القرن 10هـ/16م ، كما أننا حاولنا الاختصار قدر الإمكان مع الاعتماد على المصادر واللجوء إلى الإحالات بالنسبة إلى المراجع التي تطرقت لهذه الشخصيات العلمية و نبدأ ب:

1 – أحمد بن يحي الونشريسي أبو العباس التلمساني (834هـ/ 1430م - 914هـ/1509م) هو العالم العلامة، حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة[5]

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج2، مرجع سابق، ص 67، كذلك ، قاصري محمد السعيد ، المهاجرون الجزائريون ودورهم السياسي والثقافي والاجتماعي في المغرب الأقصى، مرجع سابق ، ص 10, 11, 12

[2]- أرزقي شويتام,المجتمع الجزائري و فعالياته خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 461

[3]- عماربن خروف، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر والمغرب خلال القرن10هـ/16م ، مرجع سابق، ص 122

[4]- محمد مزين، المصادر والوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول، والقرنان 16م / 17م، مجلة الدراسات التاريخية معهد التاريخ – جامعة الجزائر- العدد 09، 1415هـ / 1995م ، ص 97

[5]- محمد بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، منشورات السهل ص80، أنظر كذلك:التنبكتي احمدبابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، الجزآن 1/ 2، ط1،

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الشيخ الإمام العالم العلامة المصنف الأبرع والفقيه الأكمل الأرفع، البحر الزاخر والكوكب الباهر، حجة المغاربة على أهل الأقاليم وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم[1] أخذ الفقه عن أبيه الفقيه الكبير الحافظ المحصل النوازلي، وعن شيوخه التلمسانيين ... انتقل إلى فاس سنة أربع وسبعين من التاسعة[2].له تأليف عظيم القدر في الفتاوى سماه، "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"[3]و"الفائق في الوثائق" و"قواعد المذهب" وغير ذلك[4] ثم حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم عام أربع وسبعين فانتهبت داره[5]

إشراف وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهدامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989، ص 135

[1]- محمد ابن عسكر الحسيني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي مطبوعات دار المغرب، للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، 1397هـ / 1977م ص 47

[2]- أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط 1396هـ / 1976م ,ص50

[3]- تتناول هذه الفتاوى مجموعة من الأجوبة في مختلف المسائل الشرعية، فيورد الونشريسي السؤال ثم يردفه بإجابة الفقيه الفلاني مستشهدا بالأحاديث والآيات القرآنية، يراجع:أبو العباس احمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا و الأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي12 جزءا، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 1401هـ / 1981م

[4]- احمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط 1973م، ص156 . وكذلك ابن عسكر، الدوحة، مصدر سابق، ص47، كذلك : يحي ولد سيدي أحمد، ببليوغرافيا – تلمسان 1400، عنوان، دارالمعرفة، 2011، ص، 100، مخطوط إيضاح المسالك إلى قواعد مالك لأحمد بن يحي الونشريسي، عدد الصفحات من ، 420 – 468، الرقم ، 115 / ك / 12 – الخزانة الحسينية (الملكية) الرباط

[5]- تتعلق هذه الحادثة بفتواه المتعلقة ببناء جدار وحصن على أحد المقابر المجاورة للمدينة وقد عارض الونشريسي ذلك، فنهب السلطان الزياني المتوكل داره، انظر:حساني مختار، موسوعة المدن الجزائرية ج4، مدن الغرب، دار الحكمة، الجزائر، 2007 ص 97/96 كما تطرق الدكتور حساني لهذه القضية في عنصر الهجرة إلى فاس و أبرز العلماء المهاجرين في كتابة :تاريخ الدولة الزيانية، ج2 – الأحوال الاقتصادية والثقافية منشورات الحضارة، طبعة 2009م ، صص 218 الى 228

وفرّ إلى مدينة فاس، فاستوطنها[1]، تخرج على يد الشيخ أبي العباس جماعة من الفقهاء ممن لازمه[2].توفي رحمه الله[3] سنة 914هـ/ 1509 م، وهي السنة التي أخذ النصارى دمّرهم الله وهران...وكان عمره نحو ثمانين سنة)[4]

2- أحمد بن محمد العبادي التلمساني (توفي حوالي 940هـ/1533 م)

هو الشيخ الإمام العالم المحقق النحرير أبو العباس أحمد بن محمد العبادي كان من العلماء الأعلام ... ورد على فاس في الدولة الوطاسية الناصرية، وقدّمه الناصر بن الشيخ الوطاسي للتدريس في جامع القرويين... فانتفع الناس بعلومه وأخذ عنه الفقه سيدي أبي محمد الهبطي ...ولقي منافسه من فقهاء فاس في ذلك الوقت لأمور يطول شرحها، لتقدمه عليهم، وتوجه أرباب الدولة الى جهته، توفي في أوائل العشرة الرابعة، ودفن بتلمسان رحمه الله [5]

3 - علي بن موسى بن علي بن هارون أبو الحسن (871هـ - 1466م /951هـ - 1545م)

هو الشيخ الفقيه الأستاذ العددي الفرضي المؤقت العروضي المتفنن المفتي الخطيب أبي الحسن علي بن موسى ابن هارون المطغري[6]، وبه اشتهر المطغري بالطاء بالطاء مطغرة تلمسان[7] وأخذ عنه عبد الواحد الونشريسي واليسيتني والزقاق و غيرهم[8] له مشاركة في علوم التفسير والعربية والحساب والفرائض، انتقل إلى فاس

---

[1]- أحمد بابا التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج الجزء الأول، الطبعة الأولى، اشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهدامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الاسلامية ، منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس، ليبيا، 1989، ص135

[2]- أحمد المنجور، فهرسة أحمد المنجور، مصدر سابق ص50

[3]- ابن عسكر ، الدوحة، مصدر سابق، ص 48

[4]- ابن مريم، البستان، مصدر سابق، 81، كذلك أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج1 ، ط1، دراسة وتحقيق : خير الدين شترة، دار كردادة، للنشر والتوزيع . 1433هـ/ 2012م، ص ، 554 / 555 . أنظر كذلك :كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي– مركز الإسكندرية للكتاب، 1996 صص، 06/05، كذلك سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، مرجع سابق ص، 123 وما بعدها

[5] - ابن عسكر، دوحة الناشر، مصدر سابق، ص119

[6]- أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، مصدر سابق، صص 11/ 12

[7]- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق ، ص 345

[8]- أحمد بابا التمبكتي، مصدر سابق، ص 346

سنة 891هـ/1486م، فلازم العلامة ابن غازي 29 سنة في البحث و التحقيق[1] توفي في ذي القعدة سنة إحدى و خمسين، وقد ناف عن ثمانين [2]

4- الونشريسي عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (ت955هـ / 1549م)

هو الفقيه العالم العلامة، البحر الفهامة، صاحب القلم الفصيح واللسان الصريح، فريد دهره وأعجوبة عصره[3] الإمام الفقيه الأستاذ النحوي الأديب الناظم الناثر الخطيب المفتي[4] صاحب العلم الصحيح واللسان الفصيح ... قاضي فاس ومفتيها، وعدل قضاة زمانه ... عارفا بالأصول والفروع مشاركا في الفنون، محققا لجميعها مع طلاقة اللسان، وحسن التعبير وسرعته، وجودة الفهم والخط والشعر، شاعرا مجيدا لايقارعه أحد من أهل عصره ...وقد جمع له بين الخطط الثلاثة ، الفتيا والقضاء والتدريس[5] ولد بفاس بعد الثمانيين و ثمانمائة، أخذ (العلم) عن أبيه أبي العباس والشيخ ابن غازي والهبطي ... تولى القضاء ثمانية عشر عاما[6].من تآليفه، نظم قواعد المذهب المسمى بالنور المقتبس من قواعد مذهب مالك بن أنس، لخّص فيه كتاب:إيضاح المسالك لوالده,وزاد عليه زيادات رائقة... وتعليق حسن على البخاري لم يكمل، وله أزجال وموشحات[7] وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم خرج يوم عيد ليصلي بالناس صلاة العيد فانتظر السلطان أبو العباس أحمد المريني فبطأ عليهم ولم يأت إلى أن خرج وقت الصلاة ولما وصل السلطان إلى المصلى نظر الشيخ عبد الواحد إلى الوقت، فرآه قد فات فرقي المنبر وقال:يا معشر المسلمين عظم الله أجركم في صلاة العيد، فقد عادت ظهرا ، ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة وصلى بالناس الظهر وانصرف ولم يراع تغيير السلطان ولا فضيحته

[1]- عادل نويهض، أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، ط2,مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت، لبنان 1400هـ / 1980م، ص، 305، 306

[2]- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، صص، 26 / 27

[70]- ابن عسكر، الدوحة، مصدر سابق، ص 52

[4]- أحمد المنجور، فهرس المنجور، مصدر سابق، ص12

[5]- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس ج2، مرجع سابق، ص 162، 163

[6]- احمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مصدر، سابق صص 288-289

[7]- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ج2، مرجع سابق، ص 163

[1]ومما عرف به عبد الواحد الونشريسي أنه عقد صلحا بين الوطاسيين والسعديين سنة 940هـ / 1534م ، تم بموجبة تقسيم المغرب كما يلي:يكون مُلك السعديين من تادلا إلى السوس، ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط[2] وبسبب تدخله في الشؤون السياسية في المغرب مات مقتولا سنة 955هـ /1549 م[3]

5 - محمد شقرون الوجديجي بن هبة الله التجيني التلمساني (ت 983هـ / 1575م)

هو الشيخ الفقيه الفهّامة العالم العلم، العلاّمة، شيخ الفتيا وإمامها الأكبر أبو عبد الله محمد بن هبة الله المعروف بالسيد شقرون بن هبة الله [4]ووصفه أحمد المنجور بقوله(الفقيه الموحد المشارك المفتي الخطيب ... استفدت منه في العقائد والفقه والحديث والأدب وغير ذلك ...وقال لي بأنه ولد سنة ثمان وتسعمائة[5] استوطن فاسا بعد أن قدم إليها من تلمسان سنة سبع وستين وتسعمائة (967هـ/1559م) فعظّمه سلطان المغرب يومئذ (الغالب بالله) وولاه الفتوى، بحضرة مراكش وسائر أقطار المغرب، وكان يحضر مجلسه أعيان الفقهاء والسلطان بنفسه وانتفع الناس بعلومه[6].وبسبب تمكنه من مذهب الإمام مالك فقد عرف بمالك الصغير[7] له شرح على رجز أبي إسحاق التلمساني في الفرائض وكان فقيها نوازليا يقوم على ابن الحاجب أتم قيام، وكان عارفا بالأصليين والبيان والمنطق [8] توفي آخر سنة ثلاث و ثمانين وتسعمائة ، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله[9]

[1]- ابن عسكر، الدوحة ، مصدر سابق، ص 52

[2]- حساني مختار، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص99

[3]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص69.وهذا التاريخ خاطئ,أو ربما هو خطأ مطبعي والأصح هو أنه قتل سنة 955هـ/ 1549م و هو ما أشار إليه ابن عسكر في دوحة الناشر، المصدر السابق، ص، 54، وكذلك :أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص289

[4]- ابن عسكر، دوحة الناشر، مصدر سابق، ص 117

[5]- أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تحقيق محمد حجي، مصدر سابق، ص78

[6]- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق ج3، ص357

[7]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 188 .أنظر كذلك، بوشنافي محمد هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي، مقال سابق ، ص 102

[8]- أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص 325

[9]- ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 279

6 - محمد بن أحمد التلمساني (ابن الوقاد التلمساني) : (ت : 1001هـ/ 1592م)

هو الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني ويعرف بابن الوقاد [1]وهو تلميذ ابن هبة الله شقرون [2] كان أديبا وفقيها وعارفا بالتفسير والحديث، ولد وتعلم بتلمسان[3]هاجر إلى المغرب رفقة السلطان السعدي الذي فشل فشل في حملته ضد العثمانيين في تلمسان وكان ذلك سنة 968هـ/1560 م[4] حلّ بتارودانت وولي به قضاء الجماعة حوالي ستة أشهر ثم استعفى لكونه لا يعرف البربرية التي هي لسان أهلها ... ظل يتنقل بين فاس ومكناسه ثم عاد إلى تارودانت فتولى الفتوى والخطابة ... وهو أول من أقرأ البخاري قراءة ضبط وإتقان ومن شعره في تحبيب كتاب البخاري وضرورة قراءته قوله :

كتاب البخاري واضب على قـراءته واروه في الشدائد
فهـو المجرّب ترياقـه لدفع سموم الأفاعي الأساود[5]

وكان زاهدا في الدنيا و يحذر من مخالطة الملوك و الاقتراب منهم قائلا :

كل التراب و لا تعمل لهم عملا فالشر أجمعه في ذلك العمل[6]

توفي سنة إحدى وألف (1001هـ) بمدينة تارودانت وخلفه ولده الخطيب أبو زيد عبد الرحمان في علمه وهديه المتقدم[7]

7 - المقري أحمد بن محمد بن يحي أبو العباس (ت: 1041هـ /1631م)

جاء في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني للأستاذ سعد الله حول شخصية أحمد المقري قوله، لوحاولنا أن نترجم للمقري ترجمة تقليدية، لضاق عنه مجال

---

[1]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلق برجال السلف، ج2، مرجع سابق، ص 348

[2]- إبراهيم حركات، الصلات الفكرية بين تلمسان و المغرب، مجلة الأصالة . العدد 25 جويلية – أوت 1975. 1975. ص 190

[3]-عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنيين 9- 20 م / 3- 14 هـ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 120

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، مرجع سابق ص 425

[5]- سعاد لبصير، هجرة و نفي أهل العلم والدين، مرجع سابق، ص 241

[6]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 425

[7]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ج2، مرجع سابق ص، 349وللتعرف على شخصية ابنه أبو زيد عبد الرحمان، يراجع: نفس المرجع ، صص 198 ، 199

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

هذا الكتاب[1]، فكيف لي أن أترجم له (أناالعبد الضعيف) في جزء من مقالي المتواضع ؟؟؟ ذلك أن علمه غزير وحياته خصبة بالعطاء والتأليف وما كتب عنه سواء في الجزائر أو المغرب أو في المشرق لا يعدّ ولا يحصى، فهو الإمام الحبر، البحر العلامة ، ذو الفنون، أبو العباس التلمساني المالكي [2] ولد بتلمسان[3]ونشأ بها وحفظ القرآن ومنها انتقل إلى فاس سنة 1009هـ / 1600م فأخذ عن شيوخها ثم انتقل إلى مراكش فاستدعاه الخليفة المنصور السعدي وقرّبه إليه وأكرمه[4].له العديد من المؤلفات التاريخية والأدبية و الدينية[5] تعرض لفتنة [6] بالمغرب الأقصى فهاجر على إثرها إلى المشرق العربي,مصرثم مكة التي أدى بها فريضة الحج ... وكان ينتقل ما بين مصرومكة وبيت المقدس ودمشق إذ كان يلقى الدروس الدينية والتاريخية وعندئذ ألف كتابه الشهير(بمصر)الذي سمّاه في البداية عرف الطيب بالتعريف بالوزير ابن الخطيب[7]ثم عدل عن هذه الشخصية إلى تسمية أخرى هينفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب [8] وقد بلغت مؤلفات المقري

[1]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق ، ص 212

[2]- عبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع بن ساعد، موسوعة تراجم علماء الجزائر ، علماء تلمسان وتوات، طبعة خاصة، دار زمورة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011، ص 247

[3]- معظم من كتب عن المقري يرى بأنه ولد بتلمسان، لكن مراجع ودراسات أخرى تقول بأنه ولد بمقرة – التي تقع بين مدينتي المسيلة وبريكة، في منطقة الزاب وبالجنوب الجزائري يراجع :

- أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995 . ص 507

- أسماءالقاسمي الحسني ، رسائل المقري ، دراسة و تحقيق، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011 ص 96، 97

[4]- عمار هلال، العلماء الجزائريون بفاس، مقال سابق، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 09، 1995 ، ص 33

[5]- عن هذه المؤلفات انظر:أسماء القاسمي الحسني، المرجع السابق"صص 199، 200 ، 201 ، 202، 203 203 ، 204 ، 205، 206، 207 ، 208 ، 209 ، 2010 كذلك، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 541

[6]- تفاصيل الفتنة يراجع:عبد الحق حميش، محفوظ بو كراع بن سعد ، موسوعة تراجم ... مرجع سابق ص 248 ، 249

[7]- أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، صص 508- 509

[8]- أسماء القاسمي,رسائل المقري,مرجع سابق ص 200

ثمانية وعشرين تأليفا في سنة 1037هـ / 1628م [1]، توفي بمصر في جمادى الأخيرة 1041هـ /1631م فدفن في قرافة المجاورين قرب جامع الأزهر) [2]

إن المتتبع لمصادر تراجم الشخصيات العلمية خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، يجد عشرات العلماء الجزائريين، الذين كان لهم باع طويل في مختلف العلوم العقلية والنقلية، والذين لم تكن وجهتهم المغرب الأقصى فقط، بل اتجهوا الى مختلف مناطق العالم الإسلامي، ونحن إذا اقتصرنا عملنا هذا على علماء تلمسان وضواحيه، خلال فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، فإننا قد قمنا بذلك إلتزاما بفترة البحث أولا وبسبب الظرفية التاريخية التي ميّزت المرحلة ثانيا .

نتائج هجرة علماء تلمسان إلى فاس

1 - نتائج هجرة العلماء على الجزائر

إن معاملة الأتراك و الحروب الداخلية التي عرفتها الدولة الزيانية في أواخر أيامها وعلاقتها بالأسبان في وهران وضغط بني وطاس عليها من الغرب والعثمانيين من الشرق كل هذه العوامل وغيرها، قد جعلت (العلماء لا يشعرون بالراحة ولا بالجو الملائم والاجتهاد في الرأي و الحياد السياسي) فما كان من العديد منهم إلا أن حمل أمتعته وأهله وترك البلاد جملة حتى يهدأ غبار الفتن و المعارك [3]وهذه الظروف الحرجة المليئة بالاضطرابات لم تكن لتشجّع العلماء الجزائريين (خاصة علماء تلمسان) على البقاء في وطنهم لأن من طبيعة العالم هو البحث عن جو يسوده الهدوء والاستقرار لأداء رسالته العلمية على أحسن وجه[4] ولعل من بين الأسباب الأخرى التي دفعت بهؤلاء العلماء إلى الهجرة هو ذلك الجمود الفكري الذي عرفه المغرب الأوسط لأن العثمانيين ركزوا اهتمامهم على الجهاد البحري منذ مجيئهم إلى الجزائر مع مطلع القرن 10هـ/16م، وذلك لصد هجمات (الأوربيين الكفار) المتتالية على السواحل الجزائرية، هذا من جه، ومن جهة أخرى هو أن الأتراك كانوا أعاجم

[1]-أسماء القاسمي، نفس المرجع، ص 210

[2]- أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص 509

[3]- سعد الله ابو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص424

[4]- أرزقي شويتام، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية)، مجلة الدراسات التاريخي، جامعة الجزائر، معهد التاريخ العدد 13، 2011 ، ص85

لا يتقنون لغة أهل البلد وهو ما جعلهم لا يولون الثقافة الاهتمام الذي تستحقه [1] ويضيف الباحث أبو القاسم سعد الله عن الأتراك (حكام الجزائر آنذاك) أنهم في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة، كما كانوا مغامرين لا فائدة لهم من الحكم إلا جمع المال والتسلط [2] .

إن من يبحث في نشاط الحياة الثقافية في المغرب طوال القرن 10هـ / 16م، يجد أنه كان قائما في جزء كبير منه على جهود عديدة من العلماء الجزائريين (خاصة علماء تلمسان) الذين استوطنوا المغرب إذ كانت المراكز الثقافية فيه – خاصة فاس – لا تخلوا من أحد منهم[3]، وهو ما يجعلنا نستنتج شيئا أساسيا هو تدهور الحياة الثقافية بتلمسان بسبب مغادرة هؤلاء العلماء لها، ولأن معظم العلماء والطلبة الذين هاجروا إلى فاس آثروا الاستقرار فيها بصفة نهائية فإن هجرتهم تلك كانت تترك فراغا كبيرا في المراكز التي هاجروا منها مثل تلمسان التي هاجرت منها مجموعة كبيرة ، فضعف نشاطها الثقافي[4]

ومن خلال حديثنا عن تلك الشخصيات العلمية التي هاجرت من تلمسان إلى المغرب في الفترة موضوع البحث، فإن كتب التراجم المعاصرة لتلك الفترة ، ككتاب الدوحة، وكتاب الإعلام، وجذوة الاقتباس وغيرهم كانت تصف أولائك العلماء بأوصاف منها، العالم العلاّمة، الشيخ الفقيه، الإمام العالم المحقّق صاحب العلم الصحيح و اللسان الفصيح ... إلى غير ذلك من الألقاب التي لم يوصفوا بها من قبيل المدح أو الإطراء (بل نالوها عن جدارة واستحقاق بسبب شهرتهم العلمية الذائعة

[1]-بوشنافي محمد، هجرة العلماء الجزائريين الى المغرب وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني، مجلة المواقف، عدد 04، ديسمبر2009 ص 99

[2]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1،مرجع سابق، ص 14.إن من يقرأ كلام سعد الله،هذا يقول بأنه قد نظر نظرة قاتمة السواد إلى التواجد العثماني بالجزائر ولكي نكون موضوعيين في عملنا ندرج ما ذكره الأستاذ سعد الله من إيجابيات للتواجد العثماني بالجزائر بقوله:أما الجانب المضيء(فهوأن العثمانيين أنقذوا بتدخلهم المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد و كانوا غزاة مجاهدين ... و كانوا شوكة في حلق العدو و قذى في عينه و صخرة تحطمت عليها كل محاولات الغزو الخارجي ... المرجع نفسه، ص 15

[3]- عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب، ج2 مرجع سابق ، صص 131 , 132

[4]- عمار بن خروف.نفس المرجع ، ص150

الصيت التي تجاوزت الآفاق، وأثبتوا مكانتهم حتى بين أقرانهم علماء المغرب الأقصى، إذ وجد بعضهم منافسة شديدة (إن لم تكن حسدا) من طرف فقهاء فاس [1]. وعندئذ يمكننا القول بأن كل عالم من هؤلاء العلماء كان بمثابة خزانة علم، ودائرة معارف، فقدت البلاد بهجرتهم ركنا أساسيا من أركان الحياة العلمية[2].

2- نتائج هجرة العلماء على المغرب الأقصى

إذا كانت الهجرة من تلمسان إلى فاس وبالا على ثقافة المغرب الأوسط وتدني مستواها، فإنه بالمقابل كانت خيرا وبركة على المغرب الأقصى، لأسباب قد تبدوا للوهلة الأولى سياسية إذ يتمثل ظاهرها في إعجاب سلاطين المغرب الأقصى(وطاسيين وسعديين)بالعلماء، بينما يتمثل باطنها في كسب هؤلاء السلاطين مؤيدين لهم، خاصة من تلمسان(التي كانت تعتبر جزءا من المغرب الأقصى منذ العهد المريني)[3] إذ رحّب السلطان محمد الشيخ السعدي بوفادة محمد بن عبد الرحمان بن جلال التلمساني فقلّده الفتوى و الإمامة و التدريس بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين بفاس ... كما رحّب السلطان عبد الله السعدي بنداء علماء تلمسان الذين استغاثوا به في أعقاب فتنة 968هـ/1560م[4] و نقلهم إلى فاس ... وأمر للعالم أحمد بن أحمد العبادي بألف مثقال ذهبا وبكساء و إقامة جليلة ، وقال لأعوانه لا تسووه بأحد من الفقهاء فإن همّته كبيرة [5]

---

[1]- من أبرز العلماء الجزائريين الذين وجدوا منافسة (إن لم تكن حسدا)من طرف نظرائهم المغاربة آنذاك العالم الفقيه : أحمد بن محمد العبادي ، يراجع ابن عسكر، دوحة الناشر مصدر سابق ص119

[2]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص، 424 . يشير سعد الله بقوله هذا إلى هجرة أحمد الونشريسي ، (صاحب المعيار) ونحن نعتقد جازمين أن هذا الوصف ينطبق على كل العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى في الفترة – موضوع البحث – فخسرت البلاد على إثرها موردا هاما من موارد الثقافة الجزائرية ، فلو استقرت الأوضاع في الجزائر آنذاك ، ولو اهتم الأتراك بالناحية الثقافية، وعاملوا الفئة المثقفة و على رأسهم العلماء معاملة حسنة تليق بمقامهم و بعلمهم و بنوا جامعة أو جامعات ، كجامعة القرويين مثلا في تلمسان ، ألم يكن ليتغير الوضع ؟ و تصبح بذلك تلمسان رائدة في المجال العلمي – الديني بالدرجة الأولى – و تشدّ إليها الرحال كما كانت تشدّ إلى جامعة القرويين والقيروان ؟؟؟؟

[3]- عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب، ج2 مرجع سابق ، ص 122

[4]- سبقت الإشارة إليها

[5]- ابن عسكر، الدوحة ، مصدر سابق ، ص 119

إن عناية الملوك الشرفاء بهؤلاء العلماء (ليس من تلمسان فقط) بل كذلك من تونس والأندلس ساهم كثيرا في تنشيط الحركة الثقافية بالمغرب,إذ أن (البلاط المغربي) وظّف العلماء الجزائريين لصالحه كما حدث في عهد الدولة السعدية حيث استفاد المغرب من هؤلاء العلماء في إزدهار الدراسات الإسلامية بمراكزه الحضارية مثل فاس [1] وقد ساهم العلماء الجزائريون في نشر العلم والمعرفة في المجتمع المغربي , وعملوا على تقوية روابط المودة بين الشعبين... فقد كانت العلاقات الثقافية بمثابة جسور متينة تربط بين الشعبين بواسطة علماء البلدين[2] .

وبحديثنا عن نتائج هجرة علماء تلمسان إلى المغرب لابد لنا أن نعطي نتائج ملموسة عن آثار هذه الهجرة، وعن أمثلة ذلك ما قام به الشيخ العلامة محمد بن أحمد التلمساني المعروف بإبن الوقاد (إذ كان فضله كبيرا في تحبيب العربية لأهل تارودانت البربرية التي كان قد قصدها بعد هجرته من تلمسان سنة 968هـ / 1561م، ونشرها العلوم الدينيةوالعلوم اللغوية المختلفة من حديث وتفسيروفقه وقواعد اللغة ... فتخرج بذلك على يده خلق كثير[3].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن علماء المغرب الأوسط الذين هاجرو إلى المغرب الأقصى لم تكن وجهتهم فقط مدينة فاس بل هناك من قصد فاس ثم توجه إلى مدن مغربية أخرى و من أمثلة ذلك مدينة مراكش التي ذاع صيتها، خاصة في النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16م، بعدما أصبحت مقرا لخلافة السعديين فقصدها بعض علماء تلمسان، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، محمد بن هبة الله المعروف بشقرون والذي سبقت الإشارة إليه (فانتفع الناس بعلومه الغزيرة وكثر

[1]- حساني مختار، موسوعة المدن الجزائرية ، مدن المغرب ، ج4 ، مرجع سابق، ص 226

[2]- أرزقي شويتام، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية(الفترة العثمانية)، مرجع سابق، صص 86 , 87
وهنا لابد من الإشارة الى أن انتقال العلماء لم يكن من جانب واحد فقط,أي من الجزائر الى المغرب الأقصى,بل كذلك انتقل مجموعة من العلماء المغاربة الى الجزائر – في الفترة موضوع البحث – نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد التواتي وأحمد الفاسي ومحمد الفاسي، وعلي بن عبد الواحد السجلماسي ... الذين استقروا في الجزائر أو في قسنطينة أو في تلمسان,وتصدروا للتدريس فيها لمزيد من التفاصيل يراجع: عمار بن خروف العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ج2 ، مرجع سابق، ص 120 و ما بعدها

[3]- عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر و المغرب، ج2 مرجع سابق ، ص 115

الآخذون عنه من الملوك والأمراء السعديين و العلماءومن بينهم السلطان الغالب بالله، والسلطان أحمد المنصور، والعالم ابن القاضي، والعالم والمؤرخ ابن عسكر، والعالم أحمد المنجور...وكانوا يحضرون دروسه الشائعة في الفقه والمنطق، والتفسير والبلاغة والفرائض والحساب[1]وهذه العلوم التي كان يدرسها تدل دلالة قطعية على أنه كان بالفعل مكتبة متنقلة، ذات مخزون علمي وفير، أثرى به الحياة الثقافية أيما إثراء بالمغرب الأقصى خاصة مدينة مراكش

ولو أنني أطلقت العنان لقلمي للحديث عن مآثر كل عالم من هؤلاء العلماء الذين رحلوا أو هاجروا إلى المغرب الأقصى خلال القرن10ه/16م، لما استوعبت صفحات هذه المقالة مآثرهم، ذلك أن عطاءهم جزيل و إمكانياتهم و قدراتهم العلمية لا حدّ لها ... و لعلنا نختم حديثنا عن هؤلاء العلماء بأحمد المقري الذي كان معجبا بالمغرب متوليا فيه الوظائف السياسية كالإمامة والخطابة و الفتوى و هي وظائف العلماء البارزين في عهده في الجزائر أيضا إذ كان بعض سلاطين المغرب يقدمون علماء الجزائر خاصة علماء تلمسان منهم –المقري- لأسباب سياسية تتعلق بسياستهم من الدولة العثمانية [2]

ومعلوم أن عددا كبيرا من المغاربة تعلّق بالمقري ولم يستطيعوا مفارقته ذلك أنه عندما غادر مدينة فاس سنة 1027ه / 1617م , تاركا وراءه زوجته و ابنته وخزانة كتبه متوجها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج [3]، ترجاه عدد منهم بعدم المغادرة، والبقاء بينهم وأنشد أحدهم وهو الفقيه الكاتب أبو الحسن علي الخزرجي الفاسي الشهير بالشامي قائلا :

أشمس الغرب حقا ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامة
و أنك قد عزمت على طلوع إلى شرق سموت به علامة
لقـــد زلزلت منّا كل قلب بحق الله لا تقم القيامـــة [4]

[1]- عمار بن خروف.، نفس المرجع ، ص 153

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، صص213 ، 214

[3]- ليلى غويني ، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 28

[4]- أبو القاسم الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف، ج1 المرجع السابق، ص 542.والحقيقة ان مغادرة احمد المقري للمغرب لم تكن تلقائية بل كانت لأسباب متعددة منها الاضطرابات السياسية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي خاصة النزاع على السلطة بين أبنائه,كما أتهم المقري بالميل لجماعة شراكة وأضرابهم

وعلى العموم فقد كانت العلاقات بين البلدين المغرب الأوسط و المغرب الأقصى مقصورة على المستوى الشعبي و لا دخل للدوائر الرسمية فيها فهي كانت تتميز بالعفوية التلقائية، والملفت فيها للانتباه أن هناك تكاملا بين علماء البلدين فكانوا يشكلون بحق مدرسة واحدة (فالتلميذ في الجزائر أصبح أستاذا في الحواضر المغربية,والأستاذ في المغرب أصبح تلميذا بالجزائر و العكس صحيح، و هذا يدل على تواضع علماء المغرب عامة)[1]

إنه ومن خلال استعراضنا لهذه الوضعية الثقافية التي ميّزت البلدين، خلال هذه الفترة الزمنية، نستنتج أن مسألة التأثيروالتأثر بين ثقافة البلدين والشعبين الجزائري والمغربي لم تكن وليدة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، بل تمتد جذورها إلى فترات زمنية قديمة، وقد كان طلبة العلم هم وسيلة الاتصال بالدرجة الأولى، لم تمنعهم الاضطرابات السياسية الحاصلة في هذا البلد أو ذاك من التواصل مع بعضهم البعض

وخلاصة القول أن الهجرة لم تكن بمعزل عما حدث من تطورات واضطرابات عاشها المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن ال 10 هـ/ 16 م ذلك أنها كانت بدوافع تكاد تكون موضوعية، ولم تكن وجهة هؤلاء العلماء المهاجرين إلى فاس من قبيل الصدفة، بل كانت اختيارا مدروسا لأسباب متعددة أبرزها وجود تلك المنارة الحضارية التي ملأ شعاعها الحضاري والديني الآفاق بما تحتويه من مدارس ومجالس علم خاصة بجامع القرويين الذي لم يكن مقصدا للجزائريين فحسب بل من مختلف أصقاع العالم الإسلامي ممّن تتوق أنفسهم الى طلب العلم، أو التبرك بالأولياء والصالحين، ورجال التصوف إنّ هذه الهجرة من طرف علماء تلمسان وإن تركت فراغا، ساهمت فيه السياسة العثمانية في الجزائر بشكل مباشر، فإنها بمقابل ذلك كانت نعمة على المغرب الأقصى، بما ساهم به هؤلاء العلماء - ذوي السمات الفاضلة والحاملين لمختلف العلوم الدينية – بحظ وافر في تطور و ازدهار الثقافة بالمغرب الأقصى عموما، وبجامع القرويين بفاس خصوصا، طيلة فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي وربما كانت اللبنات التي وضعها هؤلاء العلماء نبراسا

على ما كانوا عليه من الفساد بفاس,أثناء فترة حكم السلطان الشيخ,فلما رأى ذلك خاف على نفسه من أهل فاس وقال عند خروجه من فاس (دخلت كمائها وخرجت كمائها) المرجع نفسه ص 550

[1]- أرزقي شويتام، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية)، مقال سابق، ص 93

تهتدي به الأجيال اللاحقة، ليس في المغرب الأقصى فقط، بل في العالم الإسلامي كذلك، لأن ثقافة هؤلاء العلماء هي بالدرجة الأولى ثقافة دينية إسلامية بحتة